

الاسترقاق عند الأمم وفي الإسلام بمناسبة مرور مائة عام على إبطال الاسترقاق

كان الاسترقاق شائعا بين الأمم قبل عهد الإسلام بألوف من السنين ، فكان قداماء الهنود والصينيين والمصريين والأشوريين والبابليين والفرس واليونانيين والرومانيين وغيرهم يتخذون الرقيق من أسرى الحروب ، كما يحصلون عليه بالشراء من أصحاب النخاسة ، وهم رجال ينبشون في بعض الأصقاع يختطفون من يقع في حبالهم من النساء والبنات والغلمان ، بقصد الإتجار فيهم كالماشية سواء بسواء ؛ وكانوا يعرضون سلعهم البشرية في الأسواق ، فيتردد عليها الراغبون يقبلون هذه المخلوقات التعمة الحظ ، ولا يدعون خفيا من جسمهم إلا فحصوه ، ثم يسامون مواليهم في أثمان ما يقع اختيارهم عليه منهم ، فيعتلونهم كما يعتلون البهائم ، ويتحكمون في حياتهم وموتهم ، غير خاشين رقيقا ولا حسييا ، لا من ناحية الحكومة ولا من ناحية الرأي العام .

وكانت القوانين في هذه الأمم تعطي السادة كل حق على أرقائهم حتى حق قتلهم ؛ فكان الممالك يجلدون ويعذبون لأقل هفوة ، وكثيرا ما كانوا يقتلون لأحقر الأسباب . وكان الناس يسيغون هذه القسوة لاعتقادهم أن الأرقاء ، وخاصة السود منهم ، ليسوا من الأسر البشرية . وقد اشترك الفلاسفة مع الدهماء في احتقار الأرقاء حتى إن أفلاطون الفيلسوف اليوناني الكبير ، وتلميذه أرسطو الملقب بأمر الفلاسفة ، قررا في تعاليمهم أن العبيد يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية .

وقد نقل التاريخ أن الشبان في إسبارطا من الممالك اليونانية ، كانوا يمرنون على الفتك بالأعداء في أشخاص العبيد ، فكانوا يوقفونهم جماعات جماعات ، عزلا من السلاح ، ويأمرون شبانهم بالهجوم عليهم والتكيل بهم ، فكانوا يقومون بما يؤمرون به فتجرى دماء أولئك الأرقاء أنهارا ، بلا داعية معقولة غير تعويد الشبان على سفك الدماء ، والتكيل بالأعداء .

وروى أن بعض براطرة الرومانيين كان له فرقة موسيقية من الممالك ، فارتأى أن يتر سواعد الضارين على الآلة المسماة بالترومبيتا ، وأن تربط مضاربها في أعضادهم لكيلا يتكلفوا ثنى أذرعهم وهم يضربون عليها .

وكان نساء اليونانيين والرومانيين في ذلك العهد محجبات ، فكان الرجال يتخذون الخصيان لخدمتهن ، وكانت تزهر أرواح الألوفا المؤلف من الأطفال الذين يعدونهم لهذه الخدمة بتأثير هذا العمل الجراحي الخطير الذي كان يزاوله رجال ليس لهم أقل علم بالجراحة وتضميد الجروح .

ولما جاءت الديانتان اليهودية والنصرانية تركت الاسترقاق على ما كان عليه ، فبقى أتباعهما عاملين به إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر .

ولما اكتشف الأوروبيون أمريكا واستعمروها ، وجدوا أنه تعوزهم الأيدي العاملة وخاصة بفلاحة الأرض ، وحفر المناجم ، فكانوا يرسلون بسفهم إلى شواطئ أفريقيا فيشحنونها بمئات من الزوج ويعودون بها إلى أمريكا ، فيموت من هؤلاء السود من يموت في الطريق ، فيلقون بهم في اليم ، ويعملون من بقى منهم في أشق الأعمال وأشدّها إرهاقا في مقابل تغذيتهم وإيوائهم ليس إلا . أما العناية بصحتهم والاهتمام بتشقيف عقولهم ، وإعدادهم للحياة الصحيحة ، فكان لا يفكر فيه إنسان ، لأن الدماء كانوا يعدونهم أحط من البيض من كل الوجوه . من هنا كثر السود في أمريكا حتى ليبلغ عددهم هنالك اليوم نحو عشرين مليونا غير الذين هاجروا منهم إلى أفريقيا منذ أعلن تحريرهم ، وأسسوا لهم مملكة في شمال غينا الشمالية باسم جمهورية ليبيريا ، تحت حماية إنجلترا ، لا تزال قائمة إلى اليوم .

ولما جاء الإسلام نظر فيما نظر فيه من أمر العالم في حالة الأرقاء ، فلم ير من الحكمة إبطال الاسترقاق طرفة ، ولكنه أحدث انقلابا خطيرا لم يحدث ما يشبهه ولا ما يقرب منه على يد أى مصلح عظيم ، فقرر أن الممالك إخوان لمواليهم لهم عليهم حقوق الأخوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم » . لذلك منع النبي ﷺ أن يقول أحدهم : عبدى وأمتى فقال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتأى وفتأى » .

هذا تجديد في أمر الاسترقاق لم يكن يخطر على بال إنسان في الأرض قبل الإسلام ، وهو حد فاصل بين القسوة الجامحة وبين مخلوقات بريئة أوقعها نكد طالعها في الأسر وليس لها غير الله من ملجأ تلجأ إليه .

ولم يقف الإسلام من عنايته بالرقيق عند هذا الحد الأدنى ، ولكنه تعداه إلى أقصى حدوده المادية ، فلم يغفل طعامه وشرابه وكسوته ، فأراد أن يساوى فيها سادته فقال ﷺ : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون » الحديث . وقال ﷺ : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناول له لقمه » وفي رواية أخرى : « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ، فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه ، فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناول له ، أو ليأخذ أكلة فليروغها (أى فليشبعها بالدسم) وأشار بيده ، وليضعها في يده وليقل كل هذه » .

هذا ما لم يسمع به أحد قبل الإسلام ، فإن الناس كانوا يتخذون الأرقاء تعظما وتكبيرا ، فإذا أكلوا وقفوهم أمام موائدهم للخدمة ، فيصيب سادتهم من أطايب الأطعمة ويتركون لهم نفاياتها . وكانوا من ناحية اللباس يختصون بأرقها وأثمنها ، ولا يسمحون لمالिकهم إلا بأخشنها وأرخصها . من أحسن ما يروى فيما يتعلق باللباس أن عليا كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة ، فلما أحضرهما له أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت ويكفيني هذا .

أما من ناحية الاعتقال فقد أوصى النبي ﷺ أن لا يكلف الأرقاء ما لا يطيقون ، فقال من حديث في حقهم : « ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببت فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » .

وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى في كل يوم سبت فإذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلामه يسعى خلفه ، فقال له : يا عبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله . ثم قال أبو هريرة : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشى خلفه .

ولما استدعى عمر أمير المؤمنين إلى الشام ليمضى صلحا في بعض بلادها كما اشترط أهلها ، كان يتناوب في الركوب بينه وبين غلامه ، فلما قربوا من المدينة كان الدور في الركوب للغلام ، فأنتهى عمر إلى معسكره وهو يمشى وعبداه راكب .

وأما من ناحية الإحسان إلى المملوكين والتلطف في معاملتهم ، فإن الإسلام قد شدد في ضرورة ذلك تخفيفا لحالة العبودية على العبيد ، فقال النبي ﷺ : « من ضرب غلاما له فكفارته عتقه » .

وقال عبد الله بن عمر : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كم نفعو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة » .

وقال الزهري من أئمة الحديث : متى قلت للمملوك أخذك الله فهو حر .

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : « بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : اعلم يا أبا مسعود - مرتين - فالتفت فإذا رسول الله ﷺ ، فألقيت السوط من يدي ، فقال : والله الله أقدر عليك منك على هذا » .

ودخل رجل على سلمان رضى الله عنه فوجده يعجن ، فقال له : يا أبا عبد الله ، ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عملين .

وقال النبي ﷺ : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها ، فذلك له أجران » .

من أعجب وأعظم ما يذكر في هذا الموطن أن الإسلام قرر أن الأرقاء يثابون على الطيبات في الآخرة ضعف ثواب الأحرار ، ويعاقبون على جرائمهم في الدنيا بنصف عقابهم . فخل هذا جانبنا وانظر إلى ما كان يعاقب به الأرقاء على أصغر الهفوات بنصوص القوانين الوضعية .

أما الحياة الآخرة فقد كان ميعوسا منها بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يعتبرون مجردين من الأرواح البشرية !

ولقد حجب الإسلام في العتق إلى حد لم يعهد له مثيل في الأمم ، فجعل العتق جزءا في الكفارات عن كثير من الآثام ، وحض عليه في أحاديث كثيرة ، وسهل على المملوكين سبيل الحرية بواسطة المكاتب ، وهي أن يكتب المولى عبده على مال يؤديه إليه في مقابل عتقه ، فينصرف للعمل والكد حتى يؤدي لسيد ذلك المال فيصبح حرا . ومن شدة رغبة الإسلام في العتق أن جعل الله جزءاً من مال الزكاة ينفق على مساعدة الأرقاء على الخلاص من أسرهم بإمداد المكاتبين بالمال لتوفية ما عليهم .

ومن أجل وأكبر ما نذكره من آيات الإسلام أنه لم يوصد باب العلم في وجه عبد بحجة عبوديته ، ولكن تركت له حرية التعلم والتبحر حتى وصل عدد كبير منهم إلى درجة الإمامة ، كبلال مولى أبي بكر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وتولى كثير منهم الخطط الهامة في القيادة والإدارة ، فولى رسول الله ﷺ بلالا المدينة ، وولى أسامة بن زيد مولاة قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر .

وقد جرى المسلمون على هذه السنة ، فاتفق أن كان جميع الأئمة في الأقطار الإسلامية في القرن الأول من الموالى إلا واحدا . قال العلامة السخاوى في شرح ألفية الحديث للقرافي : « إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى إمام الحديث يوما : « من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهرى : عطاء . قال هشام : بم سادهم ؟ فقال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم : من كان ذا ديانة حقت الرياسة له ، ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاووس ، وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمي له رجلا كان هشام يسأله أهو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى (أى أصله مملوك أو ابن مملوك) إلى أن أتى على ذكر النخعي فقال : إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » .

هذه آيات إسلامية تأخذ باللب والقلب معا ، وتدل في جملتها وتفصيلها على أن الإسلام كان يعطى الحق لأهله بصرف النظر عن ألوأنهم وجنسياتهم ، عملا بقول النبي ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » وجرى المسلمون على هذه الطريقة ، فلم يحرّموا العبيد من تولّى أرقى المناصب ، وقد اتفق أن تولّى بعضهم الملك أيضا .

قلنا فى أول هذه المقالة : إن الإسلام أقر الاسترقاق كما أقرته جميع الأديان ، ولكنه امتاز عنها بحصر وسائله فى دائرة واحدة معقولة هى دائرة الحرب الشرعية ، أما بقية وسائله التى يجمعها اسم النخاسة فقد أبطلها وعفى على أثرها ، فلا يحل لمسلم أن يشتري إنسانا اختطفه النخاسون من بين أحضان أبويه . فكان الإسلام بذلك أول من قضى على النخاسة قبل أن يفكر فى ذلك الأوروبيون بنحو ألف ومائتى سنة . فلم يبق للاسترقاق إلا هذه الدائرة وهى قابلة للضيّق ، بل وللزوال أيضا على حسب الأحوال ، فقد تقل الحروب لعدم ما يقتضيها ، وقد تزول بتاتا إذا نجحت الجهود التى تبذل لاتقائها ، وربط الدول والأمم بميثاق الألفة والتعاون .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

وإذا فرضنا أن أمنية السلم العام لم تتحقق ووقعت حرب كان من نتائجها دخول المحاربين أسرى فى يد المسلمين ، فإن لإمام المسلمين أن يمن على الأسرى فيهم لأنفسهم ويطلق سراحهم بدون أى مقابل سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وعندما دعت إحدى الدول فى سنة ١٨٣٤ إلى عقد اتفاق عام بإبطال الاسترقاق كانت الدول الإسلامية على اختلاف جنسياتها أول الملمين لإجابة هذه الدعوة ، لأن دينها الإسلام يسعى إلى تحرير الرقيق ، بل يجعله من القربات التى يتقرب بها المسلم إلى ربه .

هذه صفحة مجيدة من صفحات الإسلام تتمثل فيها أصول إسلامية هي أعجب ما وصل إلى علم البشر منذ خلقهم الله إلى اليوم . وأى شيء أعجب وأدل على إلهية هذا الدين من إحاطته الأرقاء وهم أضعف طوائف البشر وأحقرها في العرف العام بهذه الحماية التي لم يسمع بمثلها في الأرض ، وتخويله إياهم حقوقا على سادتهم ما كان يحلم بها الأحرار أنفسهم في العهود الخالية ؟ ^(٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص ٣٢٩ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

obeikandi.com

الأخلاق

اختلف الناظرون قديما وحديثا فيما تناولوه من مباحث ومسائل ؛ واتسعت شقة الخلاف بينهم فيها نفيا وإثباتا ، ووجوبا وجوازا ، وإطلاقا وتقييدا ، إلا في الأخلاق ، فقد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه والمجتمع في جملة ، لا باعتبار أنها حلية أدبية ، ولكن باعتبار أنها ضرورة حيوية لا تستقيم حياة فردية ولا اجتماعية إلا بها . فكما أن الفرد يضره ويفسد من أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا شريرا ماكرا ، كذلك تضر المجتمعات شيوع هذه الصفات في آحادها ، لأن هذه الصفات المنكرة كما تصد هؤلاء الآحاد عن النجاح في معاملاتهم ، تحول بينهم وبين التماسك فيما بينهم لتأليف اجتماع قوى مترابط الأجزاء لا تتسرب إليه المحللات العارضة .

لهذا السبب كان أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشرعين والعاملين على إنهاض الجماعات البشرية ، الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، باذلين في سبيل دعمها ، وتقوية أسسها أقصى جهودهم ، لأنها هي القوى الأدبية التي تربط الآحاد ، وتجعل منهم مجموعا متجانسا يصلح للحياة بين الجماعات المماثلة له ، ويقوى على منازعتها الحياة كما تنازعه هي إياها بقوى متعادلة ، فلم يبالغ الفيلسوف (شاتوبريان) حين قال : « الأخلاق أساس كل مجتمع » .

أما الإسلام فقد جعل للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات المتقدمة ، ولاعتبار آخر أعلى منها قدرا ، وأعم أثرا ، وهو إعداد النفس البشرية لقبول الإشراقات العلوية ، وتكييفها لتستطيع الاضطلاع بالمهمة التي ناطها الإسلام بكل مسلم في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ^(١) أى شهداء على الناس في غلوهم أو

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

تقصيرهم ، في تعقلهم أو تقليدهم ، في استقامتهم أو انحرافهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، أى في قيامكم على الصراط السوى ، وفي التخلق بأخلاق الله ، والعمل بمحابه ، وتجنب مكارهه ، وفي دعوة الناس إلى المعروف ونهيهم عن المنكر .

وضع الإسلام الأخلاق في مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة في الأرض على شدة عنايتها بها ، وتباريها في الإشادة بذكرها ، فقال النبي ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والمفهوم من هذا الحصر بيداها النظر أن الإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية للدين الحق ، وثمره لوسائله المختلفة ، ولا يعقل أنه يمكن وضع مكارم الأخلاق في مكانة أسمى من هذه المكانة .

وقد بنى الإسلام كل ما ندب إليه من الآداب على هذا الأصل . قال الفضيل : « قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » .

لم يكتف الإسلام بمجرد الدعوة إلى حسن الخلق ، فعمد إلى وسيلتين فعاليتين من وسائل حياة أهله من فساد الأخلاق فجعلهما من أهم أصوله : (أولهما) تحريمه ينابيع الثلاثة للشرور ، وهى الخمر والميسر والزنا ، تحريما لا هوادة فيه . (ثانيهما) إيجابه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإجبا لا هوادة فيه .

فأما الخمر فإنها بسلبها عقل شاربها تدفعه لكل ضروب المنكرات ، إلى حد أنه قد يقتل نفسه أو يقتل غيره ، وتهيبه بالإدمان عليها لكل ضروب الاستهانة بالفضائل النفسية ، فتحريمها على الناس يدفع عنهم كل ما يأتي من قبلها ، ويحفظ عليهم اتزانهم العقلي الذى يفرقون به بين الحسن والقبيح ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وأثر ذلك في تقويم أخلاقهم لا يقف عند حد .

وأما الميسر فهو فضلا عن أنه رذيلة من أكبر الرذائل لابتثائه على سلب مال الغير بغير حق ، يفضى إلى التخلق بالغش والتدليس والمهاترة وغرس الغل والحقد والبغضاء في النفوس ، حتى ليفضى بعض هذا إلى إراقة الدماء ، وكل ذلك يقدره في الكمال الذى أمر المسلم بجعله نصب عينيه ، وبالاتجاه في كل محاولاته إليه .

وأما الزنا فهو ذريعة للالتياث بأخلاق السفلة الرعاع من العدوان على

الأعراض والأنساب ، والتذرع بسفاسف الصفات من التحايل والتخفى وإفساد النفوس بالمغريات من المال أو الوعود الكاذبة ، وجميع هذه الوسائل تحقق المروءة ، وتدس بصاحبها في حماة الخسران .

وأما الوسيلة الثانية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد شدد فيها الإسلام كل التشديد فقال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) . وقال في حق أمة هالكة : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٢) جعل عدم تناهيهم عن المنكرات التي يقتربها شرارهم سببا لهلاكهم ، وزاد على ذلك تشييعا على إهمالهم هذا الأصل ، فقال النبي ﷺ : « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أو يسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » .

وزاد الإسلام على هذا الأصل الكريم نظاما تكافليا فجعل آحاد الأمة قواما بعضهم على بعض ، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكرا فيزه كتفيه ويمضى في سبيله ، ولكنه أمر أن يذلل قصارى جهده في معالجته ، فقال ﷺ : « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وقال : « الدين النصيحة . فقيل : لمن يارسل الله ؟ قال : لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم » . فالنصيحة لله بالقيام بما أمر به ، والانتفاء عما نهى عنه ، والنصيحة لرسوله باتباع سنته ، وتأيد شريعته ، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم بتنبههم إلى محاب الله ومكارهه ، والإهابة بهم إلى سبيله .

هذا النظام التكافلي الذي انفرد به الإسلام من أكفل النظم لحماية الأخلاق في الأمم ، وأفعلاها في تطهير نفوسها من الرذائل .

هنا قد يعترض علينا بعض الناس بأن هذا النظام يناقض الحرية الشخصية ، ونرد عليه بأن الحرية الشخصية لا يصح أن يكون لها احترام إلا في الأمور المباحة التي لا يعود منها ضرر على المجتمع ، والإسلام قد أباح لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعي في كل ما لا يناقض القانون العام ، وما لا يجافي ناموس الأخلاق ،

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة : ٧٩ .

أما فيما عدا ذلك مما تحرمه الشريعة ، وينكره العقل ، ويفسد الآداب العامة ، ويضر بكيان المجتمع فإن الإسلام يحظره حظراً لا هوادة فيه ، ويجعل لكل فرد من أفرادها حق إنكاره وإزالته بكل وسيلة يراها أصلح للقيام بواجبه حياله . فإن استطاع أن يزيله بنفسه فعل ، وإلا رفع أمره إلى ولاية الأمور ليتولوا أمر إزالته بما لديهم من وسائل القمع . فهل من الحرية الشخصية الموافقة لمصلحة المجتمع أن يفتح أحد الناس ماخورا يحشر إليه النسوة الساقطات ، ويسهل على الفساق ارتكاب الفحشاء ؟ وهل منها أن يتخذ حانوتا لبيع الخمر وأن يسقى الناس منها على مرأى من الناس لإزهاق عقول المولعين باحتسائها ؟ وهل منها أن يؤسس بعض أهل البطالة محلا للمقامرة لاستنزاف ثروة الناس ، أو للإتيان على ما في أيديهم في سبيل اللعب ؟ .

إن قال المعارض : نعم ، لم نكلف أنفسنا الرد عليه ؛ وإن قال : لا ، قلنا : أفلا يكون من مصلحة الأمة إزالة هذه المنكرات لاتقاء ما تجر إليه من البلايا والويلات ؟

وغير هذه المنكرات أمور تنافي الآداب ، وتخرج الأخلاق ، يتخيلها الإباحيون من الصغائر وهي تجر إلى أكبر الكبائر ، وأفدح المحظورات ، كمعاكسة الغاديات والرائحات من النساء ، والرقص الخليع على مرأى من الناس الخ الخ ، فأية حرية شخصية تبيح هذه الموبقات ولها من النتائج ما تنقز منه النفوس السليمة ؟ .

فالنظام التكافلي الذي اختص به الإسلام ينفي جميع هذه المفاصد دون أن تحتاج الحكومة إلى شرطة وجلالوزة لمراقبته ، وكف أهل البطالة عنه . وعمل الإسلام هذا فضلا عن أنه لا يناق نظام الحكومة الرشيدة يوافق ما هدى إليه علم الاجتماع ، ودلت عليه أطوار المجتمعات .

قرر علم الاجتماع أن مجموع الأمة كالجسد الحى ، وأن آحادها فيه كالحلايا المكونة لمجموعه ، وأن بين الآحاد ترابطا طبيعيا يشبه ترابط تلك الحلايا بعضها ببعض ، وأن فساد بعضها أو مرضه يؤثر في مجموعها بنسبة ذلك الفساد أو المرض ، فإذا كان هذا علما مقرا فكيف يصح للآحاد وهم الحلايا المترابطة المتكافلة في بنية الاجتماع أن يفضوا ، وهم عقلاء مدركون ، عما يصيب شركاءهم في ذلك الاجتماع وهم مرتبطون بهم أدق ارتباط ، وأثر تركهم وشأنهم تقع ويلاته عليهم أجمعين ، ولا تخص جماعة منهم دون آخرين ؟

أليس المنطق الاجتماعي يقضى بأن تحرص خلايا الاجتماع على صحتها وقوتها حتى لا يكون فساد بعضها وضعفه سببا في اختلال كيانها العام ، وإصابته من جراء ذلك بالأمراض التي يعجز عنها نطس الأساة كما هو الشأن في المجتمعات الراهنة حتى الآخذة منها بأوفر حظ من المدنية والثقافة ؟

أليس ما تشكو منه الأمم اليوم من اضطراب الأحوال وتفاقم العلل ، والتواء أمرها على القادة والهداة ، كل ذلك من أسباب تركهم الخلايا الفاسدة تعمل في بنية مجموعهم ، ويستشرى مرضها فيها ؟

كل هذه الأسرار التي كشفها علم الاجتماع ، قد أوجزها الكتاب الكريم في آية يجب أن تكتب بحروف من نور على صفحة الوجود ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) . فإذا كان عبث العابثين بمبادئ الأخلاق لا تقتصر مضاره عليهم بل سيصيبني منها شيء ، فكيف أغضى الطرف عنهم ، وأدعهم وشأنهم يأتون ضروب المنكرات ، ولا أحاول أن أصرفهم عنها بكل الوسائل الممكنة ؟

فهل إذا جد الجد وحلت الفتن بالمجتمع ، وأصبح الناس حيارى لا يعرفون وجه الخلاص منها ، ودفعتهم الكوارث لمواجهة أخطر الانقلابات ، نقول : إن حدث ذلك أيشفع لنا وللبريئين من أمثالنا أن نقول إنا لم نقترف من هذا شيئا وإنما تركنا غيرنا يعمل ما يشاء احتراما لمبدأ الحرية الشخصية ؟

أية حرية مشثومة هذه التي تدفع بالآحاد والجماعات في تيهور الفتن المتأججة ، ويحاط العابثون بها بحماية النظم الموضوعة ، فلا يملك أحد أن يقفهم عند حد من تهورهم ؟

فعلى الذين يدافعون عن مبدأ الحرية الشخصية بمعنى الإباحة العامة أن يشتوا لنا أن عدوان الأفراد على الأخلاق والآداب والتقاليد المقررة لا يؤثر على بنية الاجتماع

خلافًا لما نصت عليه العلوم الاجتماعية ، فإن عجزوا فليذلوا لنا بعلم يدلنا على أن ذلك العدوان أجدى على الجماعات من منعه ، فإن أعيوا فعليهم تبعة ما يجنون على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم والله من ورائهم محيط .

أما نحن ففى أيدينا الدليل العلمى القاطع على أن ما قرره الإسلام وانفرد به من هذا النظام التكافلى العام ، هو خير ما تصان به المجتمعات من النصب ، وأنه سيكون فى يوم من الأيام معاذًا لجميع الحكومات من شرور الآثام التى يرتكبها الأفراد ، ويكون ذلك مصداقًا لما قاله الفيلسوف (برناردشو) الانجليزى : إنه لا يشفى أوروبا من عللها غير الأخذ بالإسلام .

فعلى المسلمين فى جميع بقاع الأرض أن يستنوا سنة الإسلام فى مكافحة ما اعترى جماعاتهم من الأدواء القاتلة ، وليس لهم أن يقلدوا الغربيين فيما لا يسمح به منطق ، ولا يستقيم عليه حال ، فإن دينهم يحثهم على الأخذ بالأحسن ، لا على الأخذ عن غيرهم بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هذا القرآن الذى بين أيدينا يكفل لنا سعادة الحياتين ، فيؤاتينا بالأصول ويسندها بالدلائل القاطعة ، ويدعونا للنظر فيها وتعقلها والأخذ بها على بصيرة ، فيقول تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) ويقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ^(٢) وأى قول أصدق من هذا وقد أيده العلم والمنطق السليم ؟ ^(٣) .

* * *

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٩ .

(٣) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٤١٤ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

الماديون وأصول الأخلاق

ينكر الماديون وجود الخير المطلق ، زاعمين أن الخير والشر أمران نسبيّان ، فما ينفع الإنسان يسميه خيرا ، وما يضره يسميه شرا . ويقتنى على هذا أن ليس للأخلاق أصول أولية أوجدها الخالق وطبع الناس على الأخذ بها في أعمالهم وتصرفاتهم ، وإنما هي المصالح الوقتية تحتم عليهم اتباع هذه الخطة أو تلك ، تبعاً لما تقتضيه تلك المصالح نفسها منهم .

وهم في هذا الشطط إنما يصدرون عن فلسفتهم المادية ، إذ يزعمون أن الإنسان حيوان ، لا فرق بينه وبين غيره من الحيوانات إلا في كمال جثائه ، وفي قبوله للترقى ، لقيامه على تركيب يسمح له بذلك . وهو مثل سائر الحيوان ليس له روح تخلد في حياة بعد هذه الحياة الأرضية . وكل ما عزاه الإنسان لنفسه من الخصائص الروحية والعقلية ، ومن الاتصال بعالم أعلى من هذا العالم ، إنما هو شيء زينه له الهوى والخيال ، وأرسخه في ذهنه الوهم والضلال .

رأس الماديين المعاصرين (بوخنر) الفيلسوف الألماني الذي توفي سنة ١٨٩٩ قد حشر في كتابه المسمى (القوة والمادة) جميع الأصول المادية ، وبالف في دعمها بما زعمه من المقررات العلمية ، حتى سمى أشيائه هذا الكتاب بالكتاب المقدس للمادية .

ادعى هذا الفيلسوف في كتابه أن ما يسمى بالناموس الأدبي خيال محض ، وأنهم الروحيين من الفلاسفة بأنهم سريعو الانخداع بالقشور ، فعاب عليهم ادعاءهم وجود خير مطلق ، زاعماً أنه ليس في الوجود أصل أدبي مقرر ، فقال :

« إن المبادئ الأدبية ثمرة التربية ، وهي تترقى وتتهذب على طول الزمان حتى لدى الأمم المتقدمة ، والوجدان الأدبي مثل الوجدان الديني من مبتكرات قادة الأديان الذين يدعون أنهم يصدرون عن الله مباشرة ، فما الوجدان الأدبي في حقيقته

إلا الاعتقاد بوجوب أعمال محدودة اعتبرتها الهيئة الاجتماعية أصولاً لا يجب الأخذ بها لضرورتها لها ليس إلا .

هذا ما قاله بوختر ، ولكن التحقيق أن للصفات السامية أصولاً إلهية يجب البحث عنها من طريقها ، وقد ألهم الله الإنسان أن يعيش في هيئة اجتماعية من بنى نوعه . ولما كانت الحياة المشتركة لا تقوم إلا على أصول من العدل والأخلاق والآداب ، أوحى الله إلى الإنسان الأول التمسك بها ، وتتابع الأديان السماوية على حض الناس على التقرب من مثلها العليا ، على قدر ما تمكنهم من ذلك الوسائل العلمية والأدبية .

ولكن بوختر ينكر كل هذا ويزعم أن ليس هذا الوجدان الأدبي بفطرى في النفس البشرية ، وإنما هو مجموع عادات أوجبها على الشخص المكان الذى يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجوب تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية . فالخير عنده ليس له أصل قديم ثابت وإنما هو الخلق الذى ينطبق على حاجة النوع الإنسانى أيًا كانت طبيعته .

وعليه فقد يعتبر الشر في زعمه خيراً والعكس بالعكس . فالجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان في الحقيقة كما يقول ، فلتن عاقبته الهيئة الاجتماعية فإنما تعاقبه لأن ما فعله خطر على نظامها الحيوى ، وهى لها الحق في معاقبته ، لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

ثم تصدى بوختر للحرية الإنسانية التى اعتبرها العلماء الروحيون مبدأ للاختيار والإرادة ، فهدمها قائلاً : إنها وهم باطل ، فإن الإنسان في ذاته حادث طبيعى محكوم بالطبيعة التى كوّنته ، وبالمناخ الذى نشأه ، وبالبيئة التى ربته ، وبالجنس الذى نسله ، وبالتربية التى غُرست فيه من صغره .

يرى القارىء مما مر أن الماديين يجعلون الحاجة الاجتماعية أصلاً لسائر الأصول الأدبية والاجتماعية ، وأن هذه الأصول لا أصل لها لا في فطرة الإنسان ، ولا في الخارج .

وقد قالوا : إن الحاجات الانسانية هى : (أولا) حاجات مخية . (ثانيا) حاجات قلبية . (ثالثا) حاجات حسية . (رابعا) حاجات غذائية ، مرتبة هذا الترتيب . والذى يدعو إلى اعتبار الحاجات المخية فى المقدمة كونها أرقى مما يليها ، والذى يليها أرقى مما بعده ، إلى الحاجات الغذائية التى هى دون جميع الحاجات ، إذ يشترك فيها أدنى النباتات مع الإنسان .

وقالوا : على هذه الحاجات قامت حياة الإنسان فى كل جيل ، ونشأ منها جميع ما يتشدد الإنسان به (فى زعمهم) من الألفاظ الضخمة والعبارات الطنانة ، مع أنها لا تعلق عن الحاجات الحيوانية فى كبير شئ .

ونحن لأجل الرد على هذه الشبهات نقول :

مما لا يستطيع بوخنر نكرانه بوجه من الوجوه ، أن فى الكون نظاما ثابتا لا يتغير بتغير الأزمان ، ولا يتحول بتحول الإنسان . هذا أصل تعترف به كل فلسفة فى العالم . ذلك النظام مشاهد محسوس ، عليه بنيت جميع العلوم ، وبينه وبين الإنسان ارتباط من جميع الوجوه ، بل الإنسان لا يستطيع الافتكاك عن هذا النظام لأنه جزء من أجزاء الكون . وقد اكتشف الإنسان فيما وقع عليه بصره من هذا الكون علاقات بين الحوادث والظواهر سماها نواميس طبيعية ، وتبعها فى الحوادث المشابهة فوجدها ثابتة لا تتغير .

فوجود هذا النظام الكونى البديع ، وتلك النواميس الطبيعية الحكيمة ، حقيقة ثابتة لم نسمع بمن حاول نقضها قديما ولا حديثا حتى الماديين أنفسهم .

ثم إنه مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن الإنسان امتاز عن جميع الكائنات المحسوسة بأنه كائن عاقل مدرك ، عَقْل أن له وجودا خاصا ، وأدرك أن فى الوجود العام الذى يعيش فيه نظاما له نواميس مقرررة لا يحيد عنها إلا بإرادة عليا من مبدعه .

وإن الإنسان فُكّر وتدبر ، وقاس حاضره على ماضيه ، وقارن بين حوادثه المختلفة ، فأدرك بعد انتهائه إلى درجة عالية من العقل أن كمال حياته مرتبط بكمال إدراكه لتلك القوة الحافظة للنظام الكونى . وتاريخ الفلسفة حافل بكل هذه المحاولات فى خلال العصور .

ولقد أدرك الإنسان أنه لم يمتز على سائر الكائنات بالعقل إلا لأنه خلق لإدراك غاية لا يدركها سواه من سكان هذا العالم ، وأنه سوف يحقق لنفسه بها كمالاً يسيطر به على الطبيعة نفسها ، فيستخدم قواها لمصلحته ومصلحة ما يحيط به . هذا ما أجمع الفلاسفة على القول به ، وهو ما يسميه الإسلام بخلافة الله في الأرض .

ترقى الإنسان في العلم والشعور فرأى في الكون دلائل ناطقة على العناية الإلهية بالكائنات ، وعلى وجود قوى لا يدرك كنهها دائبة على تربيتها وتكميلها ، وعوامل خصصت لترقيتها وتهذيبها ، فهو أينما يوجه وجهه لا يرى إلا آثار تلك العناية ، ودلائل هاتيك القوى ، وهذا ما يسميه علماء الكون بناموس الارتقاء العام .

وقد تعمق الإنسان في البحث عن هذه القوى الدائبة على ترقية الكائنات وتكميلها فوجدها فيضا دافقا من مدبر حكيم لا يحيط به عقله ، ولا يستوعبه ذهنه ، إذ وجد فيها نظاما لا يتطرق الخلل إليه ، وإحكاما لا يجوز الخطب عليه ، وعدلاً لا تفلت منه الذرة ، وعناية نشرت رواقها على كل كائن ، فعاش في ظلها ما لا يحتمل للمس ضعفا ، كما عاش ما يرجع الأرض بمشيته قوة ، إذ أمدت ذلك الضعيف بما به قيامه وبقاؤه ، وألمته ما يدافع به عن نفسه ويحفظ نوعه .

أدرك الإنسان كل هذا وعقله ، وأعجب به وأشاد بذكره ، ولم يتخلف الماديون عن غيرهم في هذا المجال ، فوضعوا المطولات في سرد بدائع الطبيعة ، والنظام السائد فيها ، والترابط المحكم بين أجزائها ، ووقف الإنسان أيضا بصورة إجمالية على بعض ما في الكون من تقدير وتدبير وقصد ومراعاة للأصلح .

وهل كل هذه الصفات الفائضة على الكون إلا أصول سامية قامت عليها السموات والأرض ، وانتظمت بها عوالمها حتى بهرت ظواهرها العقل ؟ وهل هي إلا خير محض ، وجمال بحت ، وكال لا يقف جلاله عند حد ؟

فكيف يسوغ لفيلسوف بعد هذا أن يقول : إنه ليس في الكون أصول أدبية ، وإن الخير والشر أمران نسيان ، فما ينفع الإنسان سماه خيرا وما يضره سماه شرا ، والواقع أن الشر كل ما خالف نظام الوجود وآدابه ، والخير كل ما وافقه وسائر نظامه ، والإنسان مدفوع لمحاكاة الطبيعة في آدابها ونظامها ، فكلما بلغ من ذلك

حدا قل شره على نسبته ، فلا يزال يتحراه ويقتاس به حتى يصبح رجلا كاملا متخلقا بأخلاق مبدعه الظاهرة في مصنوعاته ، الواضحة في أعلامه ، التي نصبها لمن يعقلها من كائناته ؟

كيف يزعم زاعم أن العدل والظلم يستويان ، وأن القسوة والرحمة يتعادلان ، وأن الجهل والحكمة يتوازيان ؟ وهلا يرى أن النوع البشرى مدفوع إلى الأخذ بالصفات العليا ، ودائب في الابتعاد عن الصفات الدنيا ؟ ألم يفرد للتمدح بالفضائل كتباً ، ويقم للعاملين بها نصبا ؟

لعل الذى فتن هؤلاء الماديين أنهم يرون القبائل العريقة في الوحشية لا تفرق بين المحامد والمذام من الصفات الإنسانية ، ولكن أخفى عليهم أن هذه الجماعات ما قضى عليها بما هي فيه غير الجهل ، وأنها متى أمدت ببصيص من نور العلم اندفعت بفطرتها لتحرق الفضائل ، والإملاس من الرذائل ؟

إن التموهيات الكلامية التي ساقها بوختر في كتابه ، وافتن بها بعض البسطاء من قرائه ، لا يصح أن تكون ماثلة في فلسفة القرن العشرين إلا على سبيل التدليل على فساد الذوق المنطقي عند مادبي القرن التاسع عشر ، فإن الفيلسوف الذى يسمح لنفسه أن يقول كما قال بوختر : « إن المجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان في الحقيقة ، وإنما هو يعاقب لأنه أتى فعلا يضر المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه » . إن متفلسفا كهذا لا يصلح أن يحشر في عداد أهل التفكير والروية ، فإنه بحكمه على الإنسان بهذا الانحطاط قد سلبه أخص معارفه الضرورية ، من التمييز بين الجمال والقبح ، وقد ثبت وجود حيوانات تفرق بينهما . وإذاً يكون الإنسان أحط منزلة من الحيوان .

الخلاصة أن النظريات المادية الإلحادية ليست كما ترى إلا عصارة من آراء ضالة ، وسفسطات باثرة أدت إلى مذهب لا يفتن به إلا الذين تستهويهم الزخارف الكلامية ، ولا يجدون في أنفسهم قدرة على تحليل المسائل الفلسفية ^(٥) .

obeikandi.com

قضية الأخلاق والإنسانية

لو كانت الجماعات البشرية تجرى على ما يراه عقلاؤها أصلح لوجودها ، وأقومَ لحياتها ، لكان شأن الإنسانية غير ما نراه اليوم ، نبلا في الآداب ، وسموا في العادات ، وشرفا في المقاصد ، ولكانت بلغت من المعارف مدى أبعد مما هي عليه اليوم ، وكانت مدنيته خالصة من أكثر ما يشوبها من المثالب . لأن العقلاء لا ينجرون وراء الأهواء ، ولا يجعلون للرزائل سلطانا عليهم تقودهم إلى مواطن الهلكة صاغرين . ولكن العقلاء قليلو العدد في كل مجتمع ، قد لا يبلغون واحدا في كل ألف . فماذا تفعل هذه القلة الضائعة ، في هذه الكثرة الزاخرة ، وخاصة إذا لم يكن معها وازع من سلطان ، أو رداء من قوة ؟

الحكمة قديمة كقدم الإنسان نفسه ، فقد دلت أساطير الجماعات ، حتى في أبعد عهودها ، أنها لم تحرم من أفذاذ من آحادها ، منحوا مواهب عقلية ارتفعوا بها عن مستوى السواد الأعظم درجات كثيرة ، أدركوا معها من أصول الحياة الطيبة ، ما لم تدركه الجماهير الصاخبة ، ولكن أنى لهم أن يتغلبوا على شهوات تلك الجموع ، وخاصة إذا كانت محرومة من أوليات المعرفة ؟ وقد رأينا كثيرا ما طغت ضوضاؤها المدوية على أصوات أولئك الحكماء ، فلم يشعر بها أحد ، بل كثيرا ما سطا عليهم غوغاؤها لشذوذهم عن طريقتهما ، فقضوا عليهم كما كانوا يقضون على الحشرات المؤذية .

قضى الناس آماداً طويلة في هذه الحياة الجاهلية ، كان الخالق يتعهدهم فيها برسل يبينون لهم الطريق القويم ، ويشيدون لهم بالحياة الصالحة ، فما كانوا ليرعوا عما هم فيه ، بل كان يحملهم ذلك على إساءة الظن بأولئك الرسل ، فيقتلونهم أو يشردونهم عن أوطانهم إلى حيث يأمنون تأثيرهم ، ويتقون شرهم !!!

كثيرا ما قيل إن علاج هذه الحالة السيئة يتوقف على إذاعة العلم وإزالة الجهل ،

وهى وسيلة فعالة ولكنها ليست بحاسمة ، فلا تزال في البلاد التى أخذت من المدنية بنصيب وافر ، فقام وآحاد لا خلاق لهم من الأخلاق الإنسانية الشريفة ، وإلهم يرجع جميع ما يروى عن تلك البلاد من جرائم منظمة ، وجرائر مدبرة ، ولكن مهما كانت الحال فان انتشار العلم وسطوع أنواره على الجماهير ، خير من بقاء الأمة فى سُدف من الجهل ، وأغلال من الأمية .

السبب العلمى الصحيح لعقم التربية الخلقية فى الأمم ، يرجع إلى تعدد العوامل فى ملاحظة تأثيرها ، فإنها لأجل أن تؤثر فى النفسيات يجب أن تصادف فيها :

(أولا) استعداداً فطرياً للتأثر بها ؛ وهذا الاستعداد هو الشرط الأول فى نجاحها ، فإن لم يكن كان من العبث توقع أى نجاح لها . ألت ترى أن أخوين شقيقين ، وقد يكونان توأمين ، تكوّننا فى مستقر واحد ، وولدا فى بيت واحد ، وربيا جسداً وروحاً على أسلوب واحد ، ونشئاً فى مدرسة واحدة ، قد شبا من الأخلاق على طرفين متناقضين ؟ فإذا كان للتربية الخلقية تأثير ذاتى ، لصبت هذه الغلامين فى قالب واحد . وقد فطن إلى هذه الحقيقة شاعر حكيم فقال :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وأقام زميل له الدليل المحسوس على هذه الحقيقة فقال :

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل^(١)

(ثانياً) بيئة تصلح لتقدير الصفات الإنسانية العالية ، والمكافأة عليها .. فإن استوى عندها الخيىث والطيب ، أو فاز الخيىث بالنصيب الأوفر بسبب خبثه ، اتقاء لشره ، كان ذلك فى العمل على ملاحظة آثار التربية ، أمضى من كل عامل غيره .

(ثالثاً) شجاعة أدبية فى الجماعة ، تسمح لها أن تنقد الناس نقداً ، فتصارع المسىء بأساءته ، وتحمد للمحسن إحسانه ، بصرف النظر عن مكانه المادى .

فهذا لا تستطيع أن تصادف أمة تغلب سيرة العقلاء سيرة السفهاء فيها ،

(١) موسى الأول فى هذا البيت هو السامرى طاغية بنى إسرائيل ، وقد جاء فى الأساطير أن جبريل رباه .

وهذا الأثر السيء قد عاجلته الجماعات المختلفة على ضربين مختلفين ، فعاجلته الأمم الشرقية ، وخاصة الإسلامية ، باستعمال الإكراه لكبح جماح المعتدين ، على ما رسمه الكتاب والسنة من العقائد والعبادات والمعاملات . وعاجلته الأمم الغربية بترك الأمر وشأنه ليتفاعل ، وما مُنحه الإنسان من عقل ، وما أودع فطرته من أدب ، وما حُليت به طبيعته من مناعة ، ذهاباً من تلك الأمم أن هذه خير وسيلة لحياة الإنسانية خالصة من أهواء الطوائف ، وأوهام الطبقات ، ومزاعم المتصدين لقيادة الأرواح ، مما كانت له آثار مهلكة في النوع الإنساني ، والهبوط به إلى دركة العبودية ، لطبقة انتحلت لنفسها الحقوق الإلهية المقدسة ، في جميع عهود البشرية إلى عهد الثورة عليها في القرن الثامن عشر .

لا جرم أن التفضيل بين هذين المبدأين يوقع في الحيرة ، لا من ناحية أن الإكراه على اتباع الطريقة المثلى شين اجتماعي يجب التخلص منه ؛ ولكن لأن إقامته وسط عالم كله على خلافه ، وضرورة الاختلاط بأقوام مباح لهم ارتكاب كل ما يعاقب المسلم عليه ، كل هذا وغيره يجعل تطبيق هذا الإكراه من الصعوبة بمكان .

لهذا السبب اضطرت أم إسلامية للأخذ بمذهب أهل الغرب في احترام الحرية الشخصية للأفراد . هذا حسن ، وهو في نظرنا لا معدى عنه ، ولكننا نشترط أن نأخذ بهذا المبدأ معدّلاً في حدود الحرية الشخصية . فإذا سُمح لزعماء الحرية الشخصية أن يعاقبوا من يصفقون أو يتنخمون في الشوارع ، محافظة على صحة الناس ، كذلك يجب أن يُسمح لهم أن يمنعوا تهتك الرجال والنساء فيها محافظة على آداب الأمة ، وهلم جرا .

اجتمع مرة ورجلا لا أعرفه في قطار ، فأخذ يشيد ، لبعض المناسبات ، باستقامته ، وبأنه يكره أن يؤذى أحداً الخ ، ثم تمادى في الحديث فعلمت منه أنه يشرب الخمر . فقلت له : إنك قلت إنك مفطور على كراهة الأذى ، فكيف تسمح لنفسك أن تشرب الخمر ، وأذاها محقق لنفسك ولأسرتك ولجتمعتك ؟

فقال : كيف ذلك وأنا أشتريها بمالي وأشربها في داري ؟

فقلت له : إن المال الذي تنفقه عليها تقتطعه من نفقه أولادك ، وحسبك

إياها على مرأى منهم تُجرى لهم على معاقرتها ، وفي كل هذا أذى لهم ، قد يتفاهم عند بعضهم حتى يهلكه .

فلم يُجر جوابا وانقطع الحديث بينى وبينه .

الحق أن في كل تعدُّ على الآداب والأخلاق الفاضلة ، أضرارا مادية قد لا تقف عند حد ، بل الواقع أنها هى الأسباب المباشرة في إيصال البشرية إلى هذه الدرجات من الشرور والويلات .

وقد يحار الإنسان حينما يرى أن زعماء الحرية الشخصية تشددوا في تقييد هذه الحرية في ناحية الأمور المادية ، ولم يراعوا ذلك بل أغفلوه في ناحية الشؤون الأدبية ، إلا ما يعدده الذوق العام غليظا جافيا . ولكن هذه الحيرة تزول متى عُلم أن وَضْعَ هذه النظم من أهل القرن الثامن عشر في الغرب ، كانوا لا يعترفون بوجود ناحية روحية في الإنسان ، ويعتبرون كل ما سنته الأديان من المحافظة على سلامة هذه الحالة لا ضرورة له البتة . فلو كان المسلمون ادرعوا بالشجاعة الأدبية ، وجمعوا في نظمهم بين مراعاة الناحيتين ، أول ما أرادوا أن يقتاسوا بأهل الغرب في القرن الماضي ، لكانوا قد وفوا بحق هذه الأمة عليهم ؛ ولكن ما فاتهم هم لا يجوز أن يفوتنا نحن ، فنحن أمة تعنى بالناحيتين الجسمية والروحية ، وقد جاء العلم الغربى نفسه فأيدنا في عقيدتنا في الروح ، فلا عاب علينا في نظر الغربيين أنفسهم أن نستكمل نظمنا ، فنقييد الحرية في كل ما يعدو على الناحية الروحية ، كما نقيدها وبقيدها غيرنا في كل ما يعدو على الناحية المادية ، في حدود الاعتدال وعدم التنطع (٥)

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، ص ٣٨٦ ، سنة ١٣٦١ هـ .

أثر العبادة في حياة المسلمين الاجتماعية

ضمّني مجلس يوما وأحد رجال القلم من غير المسلمين ممن تؤدّبهم بحوثهم إلى تناول الكلام عن الإسلام ، فلما أخذ كل منا مجلسه ، نظر إلّٰي وخصّني بكلمات من الثناء شكرته عليها ، ثم قال : لقد كنت أرجو أن يضمّني وإياك مجلس فأطرح عليك سؤالا أطلت البحث في جوابه حتى اهتديت إليه ، وأحب أن أرى رأيك فيه .

فقلت له : وما هو ذلك السؤال ؟

فقال : بم تعلل سرعة قيام المسلمين ، وانسياحهم في الأرض ، وتأسيسهم لدولة بذت دولة الرومانيين في الاتساع وبسطة السلطان ، مما حير عقول الباحثين ولم يجدوا له تعليلا يقبله العلم الاجتماعي وتسيغه فلسفة التاريخ ؟

فقلت له : أتخفني بالجواب الذي وفقت إليه لأرى رأيي فيه أولاً .

فقال : إني أرى أن علة هذه السرعة كانت شدة تماسكهم ، وقوة ترابطهم ، حتى أصبحوا على كثرة عددهم كالجسد الواحد تديره إرادة واحدة ، ويدبر حركاته عقل واحد .

قلت : أحسنت في وجدان العلة ، فإنه جدير بأمة تصبح من الترابط كالجسد الواحد أن تأتق بالآيات في التوسع وبناء صروح المجد ، ولكن فأتك أمر جليل وهو أن تفسر كيف حدث ذلك التماسك الذي لم يكن مثله لأمة قبلهم ، وقد كانوا في أمهم مثلا يضرب في تفرق الكلمة ، وفي التحاقد الذي كان كثيرا ما يحملهم على التناحر ، فإن انقلاب جماعات كانوا بالأمس على شر حال من التنازب والتكافح إلى جماعة واحدة متحدة المبدأ والغاية ، تضطلع بمهمة اجتماعية كالتي اضطلع بها المسلمون الأولون ، وتنجح في أدائها ، رغما عن جميع العقبات التي صادفتها ، والقواطع التي قابلتها ، قلنا : إن مثل هذا الانقلاب المحير للعقل يعوز تفسيراً ، إذ ليس هو بالأمر العرضي ، ولا بالسبب الثانوي ، ولكنه الأصل الأصيل في إحداث

ذلك التماسك الذى أدهشكم من آثاره ما أدهشكم . وإذا كان هذا أثر التماسك بين آحاد الأمم ، فما الذى يمنعها أن تأخذ به لتصل إلى أقصى غايات الاجتماع من أقرب الطرق إليها ، وبمثل السرعة التى أدت المسلمين إليها ؟

نسكت مخاطبى قليلا ثم قال لى : وما سر ترابط المسلمين هذا الترابط المتين فى نظركم ؟

قلت : إن سره فى نظرى يرجع إلى الحكمة التى بنيت عليها عباداتهم ، فقد كتب على المسلمين صلاة وصوم وزكاة وحج . فالصلاة عمل تشترك فى أدائه الجوارح والقلب معا ، وقد روعى فى حركاتها الجسدانية أن تمثل الإنسان واقفا أمام خالقه خاشعا مستسلما قارئا ، فإذا أتم قراءته ركع خاضعا ، ثم قام وخر ساجدا ، واضعا جبهته على الأرض ، وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يظهره من دلائل الطاعة والعبودية لقيوم السماوات والأرض . أما عمل القلب فقد أمر الإنسان أن يتجرد فيه من جميع علاقته بالدنيا ، وأن يثير فى نفسه شعورا قويا بصلته بخالقه . فيُطلب إليه أول ما يدخل إلى الصلاة أن يقول : « الله أكبر » قاصدا بذلك محق جميع الأغيار ، والتحلل من جميع الآصار ، مطرحا كل هوى وكل خاطر ، حاصرا جميع قواه الروحية فى مبدعه الحكيم الذى لا يحصره وصف ولا يحده مكان . فإذا تم له هذا التجرد بدأ يتلو أم الكتاب ويعقبها بما تيسر من السور أو الآيات . فهذا العمل القلبى إذا أدى على ما ينبغى رفع من نفسية الإنسان ما لا ترفعه دراسة الفلسفة سنين ، وهذب من شعوره ، ولطف من إنسانيته ، وأزال من أدواء نفسه ما لا تستطيعه العلوم مجتمعة .

والصوم إمساك عن الأكل والشرب ساعات معدودة ، يقضيها المسلم فى فكر أو ذكر أو عمل ، بعيدا عن المشاغبات والمعاكسات ، تفرغ فيها النفس لذاتها تحت جو من التجرد صالح لإبراز أقصى مكوناتها من القوى المعنوية ، والأنوار القدسية .

والزكاة مِيران إجبارى للنفس على أن تفكر فى حاجات غيرها ، وتسد مفارق إخوانها ، وإخضاع للغنى بسلطان الشريعة على أداء حق المجتمع من المال الذى اجتمع لديه ، باعتبار أنه عضو من هذا المجتمع لا حياة له إلا بحياة المجموع وسلامته .

والحج رمز عملى لوحدة الوجهة ووحدة الغاية ، وإشعار للناس كافة بأنهم إخوان فى الله ، وإن فرقت بينهم المناسب ، وباينت بينهم المناصب ، وأنهم وهم محرمون فى صعيد واحد يمثلون حالة الفطرة ، إخوانا متحابين أمام معبود واحد ، لا ينظر إلى صورهم ولا إلى أموالهم ، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

إن هذه العبادات كلها تتكافل فى إعداد النفوس إلى كمالها باستثارة القوى المعنوية الكامنة فيها ، فما الذى يمنع هذه النفوس من التحاب والترابط ، وجميعها قد خلس من إसार الأوهام ، وافتك من سلطان الأهواء ، وتطهر من أدران الأدواء ؟ وكيف لا يكون الترابط بينها على أقوى ما يتخيل وقد سلمت من جميع العلل المفرقة ؟ قلت لمحدثى كل هذا ، فأظهر إعجابه به ، ثم أخذنا فى أحاديث أخرى حتى تفرقنا .

وإنى أحب فى نهاية هذه المحادثة أن ألفت نظر المسلمين إلى وجوب أداء العبادات على ما أمر الشرع الحكيم : من التدبير فيها ، وإعطائها حقها من الخشوع ، والمثابرة عليها . وقد أشار الله إلى ثمرات هذه العبادات فى تكميل الإنسان فقال فى حق الصلاة : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ ^(١) . فانظر إلى هذه الشجرة الكريمة التى تحصل من الصلاة ، ثمرة لو بذل الإنسان فى سبيلها ملء الأرض ذهباً ما حصل عليها ، وهى أنه يصير من ثبات الجأش ، ورباطة القلب بحيث لو أصابه ما تطير له النفس شعاعاً ، وينخلع من هوله الفؤاد ارتجاعاً ، لثبت له ثبوت الرواسخ ، وهذه منزلة تحدث عنها الفلاسفة ولم يصلوا إليها ، وقد نالها المسلمون بفضل إيمانهم وعباداتهم ، فكانوا إذا زلزلت الأرض تحت أقدامهم ، ومادت رواسب الخطوب أمام أعينهم ، صمدوا لها مطمئنين ، حتى تأخذ حدها وتنجلي وقد زادتهم إيماناً إلى إيمانهم .

وقد أمرهم الله إذا جد الجد ، واشتد الكرب ، أن يلجأوا إلى العبادة يستمدون منها روحاً يقاومون بها ما يحتوشهم من خطر ، ويساورهم من أمور كبر ، فقال

(١) سورة المعارج : ١٩-٢٢ .

تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ^(١) .
فانظر كيف يأمرهم أن يلجأوا إلى الصلاة يتقون بها الشدائد ، ويستفتحون بها أبواب
الخير .

وقد أوعد الله تعالى الذين يعبدونه وهم لا هون بأمورهم الدنيوية ، لا يتدبرون
ما يقولون ، ولا يعقلون ما يقرعون ، فقال : ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ^(٢) . فإن مثل هذه الصلاة لا تؤدي إلى الثمرة التي وضعت لها ،
فلا يحصل مقيمها على شيء ، قال عليه الصلاة والسلام : « كم من مصلي ليس له من
صلاته إلا التعب ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

ووصف الله تعالى الصلاة بأنها طهور للإنسان تدرأ عنه أدران الصفات
الساقطة ، والخصال الموبقة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ ﴾ ^(٣) ، فإذا أداها الإنسان حق تأديتها منعتة عن محارم الله ، وحفظت له
كرامة إنسانيته . وإذا أداها ساهيا أو لاهيا حرم من ثمرتها ، قال النبي ﷺ : « من
لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » .

وقال الله تعالى في ثمرة الصوم : ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ^(٤) وهذا الخير
لا يقف عند حد ، فإن النفس متى انقطعت عن أهوائها ورغباتها بالصوم ، استعدت
لتلقى الإفاضات الإلهية ، وكان اتصالها بالعالم الروحاني أكمل وأتم مما تكون عليه
في حالتها العادية ، وليس في وسع أحد أن يقدر قدر ما ينال الإنسان بهذا الاتصال
من الرتب المعنوية .

فلا غرو أن يكون المسلمون وهم يتعرضون لكل هذه المزايا الروحانية على
أكمل ما يتخيل لأمة من الترابط والتساند ، وعلى أعلى ما يتصور من ثبات جأش

(١) سورة البقرة : ٤٥ .

(٢) سورة الماعون : ٤-٥ .

(٣) سورة النكبات : ٤٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٨٤ .

أمام الزعازع ، ورباطة قلب حيال الخطوب الجسام ، فيحاولون تذليلها بعقول لم يذهب بها الهلع ، ولم يؤثر فيها الذعر . ولا عجب بعد ذلك أن يلين لهم ما استعصى على غيرهم ، وأن يبلغوا ما حاولوا أن يصلوا إليه بأسرع مما وصل إليه سواهم ^(٥) .

* * *

obeikandi.com

رمضان شهر الصيام

نحن اليوم في مستهل رمضان ، وهو الشهر الذى أمرنا أن نقوم فيه بفريضة الصيام ، وهى أحد أركان الإسلام الخمسة .

والصيام ، كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الذين فرض عليهم : رياضة دينية ، لا متعة بدنية ، وهى ككل العبادات الإسلامية ، قصد بها رفع الإنسان عن حضيض الحيوانية ، إلى المستوى الذى يليق بمواهبه الأدبية . فكل ما يطل هذه الثمرة المرجوة منه ، أو ينقص منها ، يعتبر عملاً معاكساً للمرامى التى قصدت من إيجابه .

ونحن إذا رجعنا إلى سيرة النبى ﷺ وسيرة أصحابه ، تحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب ، ومهلة تَطَهَّر وتنزّه عن جميع الكلور الجسدية والنفسية .

لعل قائلًا يقول : ما للدين وأمر التغذية ، وهو وضع طبيعى ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج إليه من المواد التى تدثر فيه بسبب الجهود التى يبذلها فى المحاولات المختلفة ؟

نقول : إن حكمة تدخل الإسلام فى أمر التغذية ، أن الجسم والروح مترابطان فى هذه الحياة ، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض ، ولكنه مودع فى هذا الغلاف المادى ، وهو الجثمان ، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التى جعلت فيه ، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المخية ، التى جعلت أداة للإدراك . ولما كان هذا الجثمان مخلوقاً من التراب فهو عرضة لكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار ، وأشد ما يصيبها منها ما ينصب عليها من ناحية الغذاء . لذلك كانت حاجة الإنسان ماسة إلى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات ، وليس منها ما هو أفعل فيه من الصيام ، وتدبير ما يحتاج إليه من الطعام .

نعم الصيام ، أما سمعت أنه قد تقرر علميا أن الأجساد البشرية متى لم يراع في تغذيتها الاعتدال ، وتغيّر ما يناسبها من المواد ، فسدت أعضاؤها ، واستدت أوعيتها ، وتصلبت شرايينها ، وتضخمت أجهزتها ، باكتسائها بالمواد الشحمية ، وشحن دمها بالمواد الأجنبية عن البنية ، وترسبت على جدران خلاياها ، وسببت لها أعراضا ثقيلة من الألم ، والإعياء ، والترهل ، وضعف الذاكرة ، وضلال المشاعر ، وعدم الاحتمال ؛ وتعدت هذه المواطن المادية إلى الصفات الأدبية فضيقت الخلق ، وولدت الضجر ، وسببت المالنخوليا والحمق ، وأغرقت فأحدثت اليأس ، وقد تسوق إلى الانتحار ؟

رأى العلماء أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها ، كان أحوج ما يكون إليه الإمساك عن الطعام أياما متوالية ، بل أسابيع ، لترايل أعضائه هذه المواد الدخيلة ، لأنه إذا لم يعامل علله هذه بالإمساك عن الطعام ، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه ، فلا يشفى مما يشعر به ، ولو تعاطى كل عقاقير العالم ، بل هي تزيده خبالا على ما لديه من الخبال ^(١) .

نعم إن السواد الأعظم لا يصلون إلى هذه الدركة من الانخراط البدني ، ولكنهم لا يخلون قط من الأمراض والأعراض التي تسببها لهم الأغذية ، فهم في حاجة ماسة إلى الصيام وتدبير الغذاء .

وقد شرع الإسلام هذا الصيام لهذا الغرض ، فهو رياضة جسدية ، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية ، التي رانت على أعضائه الباطنة ، فسببت لها أعراضا ثقيلة يشعر بها ولا يعرف لها علة ، وتقوم حجابا بين روحه وما أعدت له من الإشراقات العلوية ، وهذا أكبر حرمان تمنى به الحياة الإنسانية ، التي خلقت لتحقيق موعود الله من الترقيات الصورية والمعنوية .

(١) الخبال لغة : الفساد يكون في الأفعال والأبدان والعقول . وهو أيضا : النقصان والهلاك والسم القاتل .

الصيام في الإسلام وإن لم يكون إمساكا مطلقا عن الطعام أياما متوالية ، كما ينصح به العلم في الأحوال الثقيلة ، فإنه يهيئ للبنية فترة طويلة من خلاء المعدة تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الضارة للأغذية ، وتبوال هذا الإمساك ثلاثين يوما متوالية ، يتخلص الجنان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة .

هذا بشرط أن لا يُعقب هذا الإمساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفتن في تنويع ألوانها ، ما يشاؤه له النهم الذي اعتاده في حياته العادية ، فيصبح الصيام عليه شرا وبيلا ، ولا يجنى منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية .

نعم إن الناس اعتادوا متى جاعوا أن يشبهوا ضروب الأطعمة ، من العجنيات والحلوى والبقول والتبلات والمخللات ، وأن يندفعوا في التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحب لتبعات الأغذية حسابا ، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من الثقل ، وتراخى الأعضاء ، ومحمود العقل ما يدرك المفرطين ، وكان يجب أن يدركهم نقيض هذه الأحوال ، من نشاط الجسم والعقل ، وانبساط النفس . وبالإدمان على هذه الحالة ثلاثين يوما متوالية يخرج الصائمون وهم في حاجة إلى اللجوء إلى المستشفيات ، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل .

ونحن لأجل أن نبين للقارئ ما يجره النهم ، والجهل بدستور التغذية على الصحة ، وما يجلبه من الويلات على الحياة ، نبين في اختصار ما لا يسع إنسانا جهله من فلسفة التغذية فنقول :

المواد المائعة والجامدة التي يتناولها الإنسان في غذائه ، لا تخرج في تركيبها عن كونها إما مركبة من ثلاثة عناصر : (الأوكسجين والهيدروجين والكربون) ، وإما من أربعة عناصر : (الأوكسجين والهيدروجين والكربون والأزوت) .

الطائفة الأولى من هذه الأغذية : تدعى المواد الاحتراقية ، ومهمتها أن تحترق في خلايا الجسم فتؤتيه بالحرارة الغريزية وبالقوة الضرورية ، وهي كالمواد الدهنية والسكرية والنشا ومع البيض .

والطائفة الثانية من الأغذية : تدعى المواد الأروتية أو الزلالية أو البروتينية ، وفائدتها إيتاء الجسم بخلايا جديدة بدل الخلايا التي تدرثر منه بالجهود اليومية ، وهى مثل زلال البيض والجبن واللبن والفول والعدس وما إليها .

إذا علم الإنسان ذلك ، وجب عليه أن يعلم بجانبه أن البنية الإنسانية تحتاج إلى مقدار (معين) من كل منها لا إلى أكثر منه ، وأن كل زيادة عن الحد المقرر يلقي بها الإنسان إلى معدته تستحيل إلى مادة سمية تتسرب إلى الدم فتسمم الأعضاء وتفسدها .

هنا يصطدم علم التغذية وعقيدة العامة اصطداما مروعا ، يصرع فيه عدد لا يحصى من الناس كل يوم . ذلك أنهم يزعمون أن التغذية ما دام يؤتى الجسم بالمواد الضرورية له ، ويولد له القوة ، فالإكثار منه يزيد فى تلك القوة ؛ على حين أن العلم يقرر أن كل زيادة عن الحاجة فى التغذية تضعف الجسم وتوقعه فى شر عظيم .

ولكن للعلم هنا فى موضوع هذه الزيادة تفصيل : ذلك أنها لو كانت من المواد الثلاثية العناصر ، لم تحدث تسما ولكنها تحدث تشحما ، فيتضخم الجثنان ، وتكتسى أعضاؤه الباطنة بطبقات كثيفة من الدهن فلا تكاد تؤدى وظائفها إلا ببذل جهد كبير . وهذا الجهد يشعر به صاحبها فيتعب من أقل حركة ، ويعتريه البُهر ، وخفقان القلب ، وضيق النفس ، ولا يعود إلى راحة نسبية إلا بعد مرور وقت يمضيه فى الهدوء .

وأشد ما يصيب هذه الأعضاء يقع على القلب ، وهو أشرف عضو فى الإنسان ، دائم الحركة لو وقف بطلت بوقوفه الحياة ؛ فتخيل عضوا هذه مكانته ، يضطر للحركة فى أغلفة متراكبة من الشحم أحاطت به من جميع الجهات ، فتراه يجاهد مجاهدة المستبسل ليؤدى وظيفته بكل مشقة ، وصاحبه غافل عن هذا الأمر الجلل ينظر إلى بدائه فيفرح بها ، ويسجل بالفخر كل رطل يزيد على وزنه ، ويتجاهل أنه تحت إصر هذه البدانة أصبح عاجزا : لا يستطيع أن يقاوم عاديا ، ولا أن يرفع ثقلا ، ولا أن يصعد سلما عاليا ، ولا أن يسرع الخطى فى مهم ؛

فمثل هذه الحالة يجب أن تعتبر عجزاً ، وهى فى الرجال أقبح منها فى النساء ، فمن بلى بها فليبادر بالتخلص منها بالصيام الصحيح ، والإقلال من المواد الثلاثية العناصر .

أما الزيادة من المواد الرباعية العناصر ، فهو يؤدى إلى التسمم لا محالة ، لأن الزائد من هذه المواد يستحيل إلى بولينا ، وهذه البولينا إذا أضيفت إليها ذرة واحدة من الأوكسجين استحالت إلى حمض بوليك ، وهو سم قاتل لا يجوز أن يبقى فى الدم بحال . وهو يخرج بالمعالجة الحكيمة ، بشرط أن يقطع عن البنية المدد الوارد إليها من الخارج ، وذلك يكون بالاعتصار على ما هو ضرورى لها من تلك المواد .

وقد بحث العلماء فى المقدار الواجب تعاطيه منها ، فقدر أولاً بنحو ١٥٠ غراماً كل يوم ، ثم تبين أن هذا القدر كبير ، فأسقط إلى ١٠٠ غرام ، ثم إلى ٨٠ ، ثم رأى أخيراً أنه يكفى أن تكون ٢٥ غراماً . ومن عنى بهذا التقدير من كبار العلماء الدكتور هندهيد الدانمركى ، وقد سلك فيه طريق التجربة ، فكان يختار رجالاً من الذين يعملون بأجسادهم أعمالاً عنيفة ، ويكيل لهم الأطعمة ويزنها بحيث لا يجاوز مقدار ما يستخرج منها من المواد الرباعية العناصر ٢٠ أو ٢٥ غراماً ، فرأى أن هذا القدر قد كفاهم ، واستدل على ذلك ، بعد تجربة عام كامل ، بجودة صحتهم ، وقدرتهم على الاستمرار على العمل بدون كلل ، وانتهى من تجاربه بالنتائج الآتية :

(أولاً) أن المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية النباتية أفضل من المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية الحيوانية .

(ثانياً) أن الأغذية التى تقل فيها المادة الزلالية تزيد فى قدرة الجسم على احتمال المشاق .

(ثالثاً) أن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والأمعاء يبلغ بين سكان المدن نحو أربعة أضعاف ما يبلغه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الحبوب والبطاطس والمواد الدهنية .

وقال : إن العرب الذين يكتفون فى طعامهم بالحبوب والتمر فيهم من صلابة العود ، وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوربيين . وإن جراحة جنود السخ من الهنود ،

وهم من أشد جنود الدنيا ، لا يجاوز في اليوم كأسين من اللبن و ٢٥ أوقية من الخبز (أى نحو نصف أقة) ، وأوقيتين من الزبد (وهما يساويان نحو ٢٥ درهما) ، وأربع أواق من الفاصولياء (أى نحو ٥٠ درهما) وخمس أواق ونصف من البطاطس (أى نحو ٦٢ درهما) ، وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثا في الشهر .

وقد امتحن علماء آخرون النتائج التي وصل إليها العالم الدانمركي ، نخص بالذكر منهم الأستاذ تشتندن الانجليزي ، وأجرى هذه التجارب على نفسه وعلى غيره فاقنع بصحة ما ذهب إليه الدكتور هندهيد .

هذا رأى العلم في مقادير الأغذية الضرورية للإنسان العادى .

وقد ذكرنا البدانة وضررها ، وعزوناها إلى الإكثار من تعاطى المواد الثلاثة العناصر ، ونستدرك هنا على ذلك بقولنا : إن من الناس من يفرط في الأكل إلى حد التخم ، وهو نحيل الجسم . وقال الدكتور جاستون دورفيل في كتابه صناعة إطالة الحياة :

« إن جميع المفرطين في الأكل ليسوا ممتلئين شحما ، فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ولكن القسمان يستويان في الهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير .

ثم قال :

« من الناس من يفرط في الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ، ومحياه مشرقا ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكى أقل وجع ، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو في عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش ، فإن هذا الأكل لم يكن في جمده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط ، فتأدى في شأنه فتراكت عليه السموم فقتلته ولا كرامة » .

وبعد :

فنحن اليوم نؤدى فريضة الصيام ، وقد جعله الله وسيلة لتزكية أجسامنا وعقولنا وقلوبنا من طريق الإمساك عن الأطعمة التي تهلكنا على النحو الذى بينته

في هذه العجالة . فإن احتال محتال على الإبقاء على العادة السيئة التي تسربت إلى المسلمين ، فقلبت شهر الرياضة والنزاهة إلى شهر نهم وقصف ^(١) ، فزعم أننا أمرنا بالإمساك عن الطعام ساعات معينة ولم نؤمر بما يعدو ذلك من الإقلال منه ... قلنا له : إن الاعتدال في الطعام ، وتحري القدر الضروري منه لحفظ الحياة ، وعدم تعدى ذلك الحد إلى الإسراف ، أمر مأمور به في الإسلام في الشهور العادية ، فوجوبه في شهر العبادة ألزم . ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ^(٢) .

أو لم يقل النبي ﷺ : « حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه » ؟ أو لم يقل أيضا : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » ؟ أفكان الله ورسوله يأمراننا بالاعتدال في الطعام في الأيام العادية ، ويبيحان لنا الإسراف فيه في شهر النسك والعبادة ؟

فلنتتيز هذه الفرصة السانحة لنا في هذا الشهر الكريم ونقفوا أثر النبي ﷺ ، وأثر أصحابه ، لنصل إلى بعض ما وصلوا إليه من كرامة الحياة ، وعزة الوجود ، وشرف البقاء ، والله ولي المحسنين ^(٣) .

* * *

(١) القصف : اللهو واللعب والتوسع في الطعام والشراب .

(٢) سورة الأعراف : ٣١ .

(٣) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، ص : ٦٩٠ ، سنة ١٣٥٨ هـ .